

الندوة الوطنية الثامنة عشرة عام 1441هـ/2020م

متن الرسالة ومحاوريته في البرنامج الفقهي للشيخ بلڪبير ﷺ

كلمة الشيخ مولاي عبد الرحمن بكار

إمام أستاذ رئيسي بولاية وهران



كتاب الرسالة لابن أبي زيد القيرواني من أهم المؤلفات وأقدمها، في المذهب المالكي، حيث تحتل المرتبة الثالثة بعد الموطأ ومدونة سحنون، واعتبرها القرافي من بين خمسة كتب علق عليها المالكية شرقا وغربا، قال زروق في وصفها: رسالة ابن أبي زيد شهيرة المناقب والفضائل، غزيرة النفع في الفقه والمسائل من حيث إنها مدخل جامع للأبواب، قيمة المرام في الحفظ والاكتساب، وقد نهج فيها صاحبها نهجا يميل إلى التبسيط في الأسلوب والروعة في البيان والدقة في الأحكام، وهي وإن كان الداعي لتأليفها تعليم الولدان إلا أنه لم يستغن عنا مبتدئ أو منته، وما إن سمع الناس بتأليفها حتى طار ذكرها في الآفاق واهتم الناس بها دراسة وتديسا وشرحا وتأليفا، حيث إن الأعمال التي أقيمت حولها بلغت 53 عملا، على ما ذكر الدكتور عمار الجيدي، ومن شدة الإعجاب بحسنها والإشادة بمتنها أن أول نسخة بيعت في بغداد في حلقة أبي بكر الأبهري بوزنها ذهباً ربما لم يكتب هذا غيرها، لم تخل حلقة فقهية في المشرق والمغرب، منها منذ أن ألفها صاحبها في سنة 413هـ أما دخولها إقليم توات فقد تأخر قليلا، وتقول المصادر التي اطلعنا عليها أن دخولها كان سنة 670هـ على يد مولاي سليمان بن علي دفين قصر أولاد وشن عن شيخه علي بن حرزهم منذ ذلك الحين وهي لصيقة بالدرس الفقهي التواتي إلى يومنا هذا.

والذي يهمننا في هذا المقام أن الرسالة كانت أحد الأعمدة للدرس الفقهي اليومي لشيخنا سيدي محمد بن الكبير ومما عهدنا سماعه منه إشادة برسالة: قوله باكورة العد وعكازة المذهب - وكان يقول: كل طالب علم يقرأ المرشد المعين والرسالة فلا بركة في علمه ومثلها في في المجلس كل مجلس يقرأ فيه المرشد المعين والرسالة فلا بركة فيه.

ذلك فلم تكن الرسالة يخلو منها مجلس صباحي مسائي وإن كان حضورها في المجلس المسائي خفيفا بمعدل وقفه أو وقفتين باعتبار أن حضوره كان خليطا بين العامة والطلبة وكان يراعي حاجتهم فيميل إلى تكثير الدروس في المتون للصيقة بحاجتهم كابن عاشر والعبقري وغيرها.

وعلى عكس المجلس المسائي فإن المجلس الصباحي هو مجلس خاص بالطلبة غالبا فإن حضور الرسالة فيه حضوريا قويا بمعدل أربع وقفات في المجلس الواحد مقسمة على أرباع الكتاب وهكذا فإن دراسة الكتاب بهذا الاستيعاب في الشرح يمكن الطالب غالبا من حضور ختمة كتاب الرسالة فلا ربما ختمات إن مكث الطالب برهة من الزمن في الدراسة عكس كتاب خليل فإن حضور ختمه لا يتيسر إلا للقليل، ومن مظاهر الاهتمام بالرسالة وحرص الشيخ على إيصالها للمستمع انه كان يشرحها شرحا بسيطا وبعبارات سهلة تراعي مستوى الطالب المبتدئ ولا تغفل حاجة المتوسط، وكان شرحه مزيجا مما سمعه من شيخه سيدي أحمد ديدي ومن مطالعته وما جادت به سماء الفتح، لكننا لاحظنا أحيانا انه ينقل عبارة الشارح كما هي يستعين بها على إيضاح المطلق من لفظ الرسالة وكانت عاداته هذه بادية أكثر في شرح كفاية الطالب الرباني للإمام ابن الحسن علي بن محمد المنوفي

ومن الأمثلة على ذلك: قول ابن أبي زيد رحمته الله في باب ما تطف به الألسنة وتعتقد الأفئدة من واجب أمور الديانات، وإن الله تبارك وتعالى يحيي يوم القيامة

والملك صفا صفا، وقال الشارح في شرح عبارة تبارك أي تزايد خيره، وتعالى أي تعاضم عن فئات المخلوقين لعرض الأمم إي تمييز المعروضين والنظر في أحوالهم وهي نفسها العبارات التي يرددها الشيخ في الشرح عند التعرض لإيضاح هذا النص.

وكذلك في قول ابن أبي زيد: وإن ملك الموت يقبض الأرواح بإذن ربه، ربه قال الشارح: وإن ملك الموت، واسمه عزرائيل وقيل عبد الجبار يقبض الأرواح، يورد أبو الحسن هنا أثرا ينقله الشيخ في درسه، وهو قول ملك الموت: والله لو أردت قبض روح بعوضة ما قدرت على ذلك حتى يكون الله هو الذي يأذن بقبضها.

وسأقتصر على هذين النموذجين حتى لا يطول بنا المقام، وإلا فإن الأمثلة أكثر من أن تستوعبها ورقة كهذه.

هذا وبالرغم من أن طبيعة الدروس الفقهية لدى الشيخ في غالبها تميل إلى الاختصار على الاستفاضة في إيضاح معنى المتن وتفكيك ألفاظه كما هي عادة المناهج العلمية السائدة آنذاك إلا أن نزعة الدليل لم تغب عن الشيخ وهو يعالج مسائل الرسالة باعتبار أن تلك النزعة كان صداها بدأ يتردد في الأفق، فكان يردد على مسامعنا أن مسائل الرسالة 4000 مسألة استنبطها من 400 حديث، وأن بعض نصوصها ما هي إلا أحاديث منزوعة السند، ويضرب مثلا لذلك يقول ابن أبي زيد في باب الزكاة: وذكاة ما في البطن ذكاة أمه، فإن أصل هذه العبارة حديث صحيح. وكذا في باب النكاح: ولا نكاح إلا بولي وصادق وشاهدي عدل.. فإن ذه العبارة كذلك أصلها حديث صحيح.

وأراه كان يمهد لهذه النزعة بهذا التوجيه الذي ينم عن سبق واستشراف لمآلات هذه القضية على صنيعة التحصيل العلمي الرصين.

ويمكن لنا ونحن نبين أهمية ومركزية الرسالة في الدرس الفقهي للشيخ رحمه الله أن نوضح ونجلي الوجه الآخر من الاهتمام بالرسالة الذي هو ألصق بشخصية الشيخ رحمه الله وهو جانب التربية والتزكية، فقد كان لهذا الجانب حضوره القوي والمميز في شرحه لدروس الرسالة سيما في باب العقيدة حيث لم يكن الشيخ يكتفي بمجرد ذكر معنى اللفظ المجرد لأسماء الله تعالى، بل كان يضيف لمستة الصوفية والتزكية للمعنى. وسأسوق بعض النماذج في ذلك. قال صاحب الرسالة في باب ما تنطق به الألسنة: العالم الخبير المدبر القدير السميع البصير.. يقول الشيخ رحمه الله بعد ذكره لشرح ألفاظ هذه الأسماء - ومن علم أن الله عالم استحيا منه أن يطلع على قلبه فيرى منه ما لا يرضاه.

وفي صفة التدبير يقول: ومن علم أن الله هو المدبر اكتفى بتدبيره عن تدبير نفسه، وبعد شرحه لصفة البصير يعقب ذلك بقوله: ومن علم أن الله بصير استحيا منه أن يراه حيث نهاه أو يفقده حيث أمره. وفي شرحه لصفة القدير يعقب ذلك بقوله: ومن علم أن الله قدير خاف من سطوته عند مخالفته، ولقد لاحظنا هذا الأمر يغلب على الشيخ حتى في نقولاته لبعض الشراح في هذا المجال، فيتقني منها ما يتوافق مع هذا المنهج في ترسيخ معاني العقيدة.

ومن أمثلة ذلك هذا المعنى الجميل الذي ينقله عن أبي الحسن في شرحه لمعنى الآية التي ذيل بها ابن أبي زيد كلامه عن صفة العلم، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَةٍ إِلَّا يَنْقُلُهَا وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾⁽¹⁾، ينقل عنه قوله: وَالْمَعْنَى: أَنَّ اللَّوْحَ الْمُحْفُوظَ فِيهِ عِلْمُ كُلِّ شَيْءٍ مَا دَقَّ وَمَا جَلَّ حَتَّى سَقُوطِ الْوَرَقَةِ وَالْحَبَّةِ وَهِيَ لَا تَكْلِفُ عَلَيْهَا. فَمَا بَالُكَ بِالْأَعْمَالِ الْمُجَازَى عَلَيْهَا بِالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ نَسْأَلُ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْغُفْرَانَ إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ مَنَّانٌ.

(1) سورة الأنعام/59.

لقد كان سلوك الشيخ في تناوله لمعاني الرسالة في باب العقيدة جزءاً من سلوكه العام في تلك العلوم التي درسها، فقلما يدرس فناً أو علماً أو كتاباً إلا وتجده ينفذ بك إلى علم التزكية والتصوف ولو بطريق الإشارة الخفيفة كما هو صنيعه في الأجرومية في معنى الخفض والنصب والرفع، وذاك شيء غير مستغرب من معدنه، فكل إناء بالذي فيه يرشح.

يبقى أن نشير إلى أن الشيخ كان يتخذ من دروس الرسالة جزءاً من رسالته التربوية والإصلاحية للمنطقة، حيث كان يؤم جموع الناس مسجده في رمضان لتستمع إلى دروسه، وكان لبها وجوهرها ثلاثة أبواب من الرسالة باب العقيدة - النكاح - جمل من الفرائض، وقد كان لهذه الدروس صداها في مجامع القصور ويوميات الناس وغرف الناس من خلالها كثيراً من أمور دينهم ومعرفة ما أحل الله لهم وما حرم عليهم.

